حكاية «لوكريسيا» القديمة: واستقرار الحكم فى مصر!

أنيس منصور

التقدير

الاستقرار والاستمرار أو استمرار الاستقرار فى مصر قد أدى إلى إجراح الحكومات العربية التى تمزقها الخلافات الداخلية ، وتزلزلها المخاوف الخارجية .. سواء كانت حكومات فردية أو قبلية .

وقد أدى سقوط الشاه أو إسقاط الشاه إلى يأس هذه الحكومات العربية من المساندة الأمريكية لأصدقائها . كما أدى فشل أمريكا فى إنقاذ مواطنيها الرهائن إلى أن يتأكد عجز الإدارة الأمريكية عن الافلات من عقدة « فيتنام » أى عقدة الفشل الذى لحق تدخلها المباشر فى الخلافات الآسيوية .. كما أن التجربة المصرية السوفيتية قد شككت فى الموقف السوفيتى وفى قدرة الكرملين على فعل شىء من أجل أية قضية – إلا فى سوريا التى تحتاج إلى دعم قوى ضد الشعب الثائر على الأقلية العلوية الحاكمة ، وإلا فى ليبيا الخائفة من مصر ..

ولكن دول الخليج خافت من البديل السوفيتى – أى البديل عن الحماية الأمريكية . وفى نفس الوقت بحثت عن بديل عن الزعامة المصرية . فاتجهت دول الخليج إلى العراق السيد الجديد . وساندته فى حربه ضد إيران . واتجهت مرة إلى أمريكا .. وإلى الدول الأوربية ..

أما أمريكا فقد شجعها الرئيس السادات على اتخاذ موقف إيجابى . عندما أبان لها الخطر السوفيتى على المنطقة . وعندما منحها تسهيلات عسكرية لحماية أية دولة عربية أو إسلامية .. فخرجت طائراتها من مطار قنا لإنقاذ الرهائن .. وخرجت أسلحتها للسعودية وللأردن . وللصومال ولأفغانستان . ونشرت أمريكا مظلة من طائرات الإنذار المبكر فوق السعودية والخليج ..

ولكن بقيت الدول العربية على ماهى عليه رأساً : القلق على يومها . والأرق على غدها .. ولم تتفق الدول العربية على رأى واحد من أجل القضية الفلسطينية التى ضاعت فى سوق السياسة الدولية والقومية والداخلية ..

ولما أعلن الرئيس السادات كثيرا أن هذه الأوضاع سوف تنقلب على حكومات المنطقة وأن مصر وحدها هى جزيرة السلام وحصن الأمان . قالوا إنها نفس العبارة التى أعلنها الرئيس كارتر حين وصف الأوضاع فى إيران . ثم سقط الشاه دون أن يدرى الرئيس كارتر أن أمريكا هى التى أسقطته .. إذن لمصر هى إيران القادمة ؟؟ ولابد من البحث عن خومينى جديد لمصر ؟! وتحمست الدول العربية ودفعت أموالا كثيرة لكل من يأتى بتفاصيل الانقلابات المقبلة فى مصر ؟!

وضاعت الأموال . وسوف تضيع غيرها . ولم يظهر خومينى ! بل ان خومينى نفسه سوف يختفى من إيران !

وفى مواجهة ذلك كله أعلن الرئيس السادات أن التحدى لايزال قائما : إما أن تكون مصر فى سعيها من أجل السلام الشامل وحل القضية الفلسطينية على خطأ . وإما أن الدول العربية كلها هى التى على خطأ . ولم تتقدم الدول العربية بشىء بديل عن مبادرة السلام واتفاقيات كامب داڤيد والمعاهدة مع إسرائيل وعن زعامة مصر للعالم العربى والإسلامى . ولم تتوقف حملات التشكيك والتشويه . فى بعض الصحف العربية والأجنبية .

وإن كان كثير من الذين تحاملوا على مصر قد عادوا فأكدوا صحة الخط المصرى . وصدق الفراسة المصرية لكل مايحدث فى المنطقة العربية .

وليس الصحفى البريطانى داڤيد هرست إلا نموذجا بارزا لكثير من المحللين السياسيين . فهو الذى حمل على مصر بعنف وكان ظالما مفرطا . وطردته مصر . ولكنه عاد فكتب أخيرا أن كل مانوقعه الرئيس السادات صحيح تماما . وأنه أقدر العرب على زعامة العرب ، وعلى فهم العرب . وأنه على صواب . وأنهم على خطأ عندما توهموا أنهم قادرون على فعل شىء بمعزل عن مصر ..

❑❑❑

ومنذ أيام جاء صحفى إسرائيلى إلى القاهرة منتدبا عن « جيروسالم بوست » . وكان هدفه الأول أن يقوم بزيارة للمدن المصرية الجديدة . مدينة السادات والعاشر من رمضان وأن يرى بنفسه مشروعات الأمن الغذائى .. وأن يتابع أعمال البناء والتشييد فى كل مكان لأنه يعتقد أن هذا البناء أكبر دليل على حرص مصر على السلام ..

وأن يحاول مقابلة السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ..

ولم تكن هذه زيارته الأولى للقاهرة . فقد رأى كثيرين وكثيرا .

ثم عاد إلى القدس ليكتب شيئا عجيبا : أن هناك صراعا بين الرئيس السادات وبين نائبه السيد حسنى مبارك . وأن السيد حسنى مبارك هو مركز القوة الجديد وأن الرئيس قد قرر تصفية هذا المركز الجديد ومن معه من الوزراء وأن هذا القرار قد تأجل إلى مابعد زيارة د . كيسنجر لمصر ؟!

ومن الطبيعى أن تتلقف الصحف العربية هذا النبأ عن إذاعة إسرائيل . كما أنه انتقل بنفس السرعة إلى « التلجراف » البريطانية . ومن مراسلها فى القدس وقرأه

وفى أسوان كان لقاء الرئيس السادات بالسيد هايم هرتسوج . وقد حضر اللقاء السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ود . فؤاد محيى الدين نائب رئيس الوزراء . وكان الحوار شاملا ..

وهل يستمر الخوميني في إيران ؟

أن إسرائيل في فزع مما سوف يحدث . وان الإدارة الأمريكية الجديدة لابد أن تراجع حساباتها قبل أن تستقر الأوضاع في مصر؟!..

ولاشيء يسعد « النظم » العربية القلقة . سوى أن يكون القلق شاملا في العالم العربي . وخاصة في مصر..

ولاشيء يريح الذين ضايقهم التفاهم المصري الأمريكي مع الإدارة الجديدة . إلا أن يكون هناك شقاق سريع بين السادات وريجان ! ..

وفي نفس الوقت نشرت صحيفة « بالتيمور صن » لمراسلها في القدس أيضاً مقالين هجوماً على السياسة المصرية . وعلى الصورة الرائعة للقيادة المصرية عند الرأى العام الأمريكي .. ولم تخف المراسل مصادر المعلومات التي استقاها عن الوضع في مصر . فذكر أسماءهم جميعا !..

وصحيفة « بالتيمور صن » هي التي ادعت أن الرئيس السادات قال : فليذهب ريجان إلى الجحيم !..

ولم يكن ريجان هو المقصود – كما نعلم – وانما الرئيس جونسون ووزير خارجيته فونس دالاس..

ولابد أن هذه الصحيفة الأمريكية قد ساءها تصحيح هذا اللبس عندما ذهب السيد حسنى مبارك إلى أمريكا وأوضح الموقف المصري للإدارة الجديدة..

وحين نشرت صحيفة « جيروسالم بوست » هذه الأكذوبة كان السيد حايم هرتسوج أحد مديريها بالقاهرة . وسمع من « صوت إسرائيل » هذا النبأ العجيب ولم يعرف على أى أساس اعتمد المراسل في نشر هذا الخبر.

ثم التقى السيد هرتسوج بالرئيس السادات في أسوان . وقد حضر هذا اللقاء السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ود . فؤاد محيى الدين نائب رئيس الوزراء . وأنا .. وتناول اللقاء كل القضايا السياسية والحزبية ومستقبل السلام بين مصر وإسرائيل والخطوات القادمة لحل المشكلة الفلسطينية والأوضاع الحزبية في إسرائيل . وكان الحوار صريحاً وشاملاً..

وعلق السيد هرتسوج على هذا اللقاء بقوله :

إن الرئيس السادات طراز فريد بين الزعماء في العالم.. بل هو الزعامة الوحيدة البارزة في المنطقة . ولم أكن أتصور أنه بهذا الهدوء والاتزان والصفاء العقلي..

وقال الرئيس السادات تعليقا على الحديث مع السيد هرتسوج : لقد استمتعت بالحوار معه وبإدراكه السليم لكل القضايا السياسية بين البلدين وفي الشرق الأوسط . لقد سمعت عن السيد هرتسوج وقرأت له ولكني وجدته ممتازا . وأنا أحب الحديث إلى مثل هذه العقول المضيئة..

وقد التقى بالرئيس السادات كثير من مندوبي الصحف الإسرائيلية والمراسلين الأجانب وسألوه عن كل شيء . ثم كتبوا ماينطق لهم..

ولم تضع مصر قيدا على أقلامهم أو خطواتهم.. فكل المؤسسات مفتوحة أمامهم .. وليست في مصر رقابة على رسائل أو برقيات المراسلين الأجانب – وليس في استطاعتهم في إسرائيل أن يبعثوا برسالة أو برقية دون موافقة الحكومة . حرصا على الأمن القومي..

أما في مصر فهم أحرار يفعلون ويكتبون مايشاءون – ومثل هذه الأخبار الكاذبة هي بعض مايشاءون – ولكن لماذا ؟..

إن بعض مراسل الصحف الأجنبية والعربية كثيرا مايقعون تحت إغراءات شديدة.. بعضها إغراءات الإثارة الصحفية الضارة.. وإغراءات الدول العربية التي تغذي بأموالها حملات التشويه لوجه مصر . ومن المعروف عندنا تماما من الذين التقى بهم مراسل صحيفة « جيروسالم بوست » . إنه قد التقى « بجماعة الكراهية » الذين كانوا في السلطة أو كانوا مراكز قوى قديمة . والذين يحلمون بالعودة إلى مقاعدهم على أنقاض نظامنا الدستوري القائم . وهذا المراسل مثلهم جميعا يتوهمون بسبب ارتفاع نبرة المعارضة المصرية . أن هذا هو نبض الرأى العام المصري . فيقفزون إلى النتائج . ويقلبون الأوضاع . فبدلا من أن يروا أن الاستقرار هو الرأى العام . يجدون أن المعارضة هي الرأى العام . ومادامت المعارضة صارخة فالناس جميعا كذلك .

ولكن مهما ذهبت المعارضة في نقد النظام . فإن أحدا لن يسكت صوت المعارضة . فالديمقراطية في مصر لاتستحق هذا الاسم دون أن يكون هناك رأى آخر . ودون حرص منا على الرأى الآخر . ولكن إذا كان هناك اعتراض على المعارضة . فهو أنها كثيرا مانذهب إلى التجريح والمبالغة في ذكر العيوب .. ثم التطوع للتشهير بمصر في مثل هذه الصحف الأجنبية . وان لم يكن ذلك عاراً أخلاقيا . فهو جريمة قومية..

ويوم التقى الرئيس السادات بمجلسي الشعب والشورى كان يؤكد أن القاعدة الشعبية قد اتسعت . أى أن القيادة والرقابة الشعبية قد أصبحت بالمئات وبالألوف . فمصر لايحكمها فرد أو عدة أفراد .. إنما إدارتها تضم المئات . وهذه القيادات قد أرهقها العمل والسهر وأسعدها أيضا . ولذلك قتل هذه الأخبار . إلى جانب أنها كاذبة فإنها تحاول الوقيعة بين الرئيس السادات ونائبه السيد حسنى مبارك أحد أبطال أكتوبر.

ومن المؤكد أنها محاولة فاشلة . فليس نظام الحكم في مصر هشا إلى درجة أن خبرا مكذوبا يقيمه ويقعده..

لقد كان ذلك فيما مضى من ألوف السنين عندما قامت الحرب من أجل هيلين حسناء طروادة...

ولم يعد من الممكن أن تقوم حرب مثل الحرب السبعينية بين النمسا وفرنسا . لأن السفير الفرنسي قد أعلمه المستشار بسمارك ساعة أو ساعتين . ولا أن تنشب حرب

عالية بسبب مقتل الأمير الحساوى فرانس فرديناند فى بوخارستا . ولاحرب بين أمريكا وإيران بسبب خمسين من الرهائن . ولا أن تمسح مصر عبارة السادات فى الكنيست من أنه لاحرب بعد اليوم بين مصر وإسرائيل بسبب « هضبان » مراسل أجنبى !

وعندما استدعى السيد منصور حسن وزير الدولة لرياسة الجمهورية والإعلام سفير إسرائيل د. الياهو بن أليسار . أكد له السفير أنه لاسلطان للدولة على الصحف . وأن صحيفة « جيروسالم بوست » بالذات قد احتفت بالرئيس السادات أكثر من حفاوتها بالسيد بيجين . وأن مثل هذا الخبر لايمكن أن تكون الحكومة هى مصدره أو وراءه ولامصلحة لها فى ذلك .

وقبل ذلك بأيام نشرت صحيفة « عل همشمار » خبراً عن الميدالية التى توزعها القوات المسلحة فى عيدها . وهذه الميدالية قد نقش على أحد وجهيها : جندى مصرى يمسك بندقية وتحطم بها نجمة داود ودبابة إسرائيلية . وتعيب الصحيفة على السفير الإسرائيلى فى القاهرة أنه تلقى هذه الميدالية ولم يتقدم باحتجاج رسمى إلى مصر على موقفها العدوانى من السلام !

وقد تلقت الصحيفة هذه الميدالية من اثنين من الدبلوماسيين الأجانب فى مصر . وكانت مندوبة هذه الصحيفة هى الأخرى بالقاهرة . وكانت على حريتها التامة فى لقاء من تشاء . ومن بين الذين التقتهم بعض أعضاء « جماعة الكراهية » لكل إنجازات مصر فى الحرب والسلام والديمقراطية .

وتردد النبأ فى « صوت إسرائيل » وفى التليفزيون .

وبادرت السفارة المصرية باستكذار هذا النبأ .

وكذلك فعلت صحيفة « معاريف » .

أما حقيقة هذه الميدالية فهى أنها « سلسلة مفاتيح » توزعها القوات المسلحة على الشخصيات العامة وفى المناسبات القومية وعلى الوفود المختلفة التى تزور مصر . وقد أنتجت هذه الميدالية سنة ١٩٧٣ . وطبيعى جداً أن تفعل ذلك . فقد انتصرت مصر وحطمت قوانا نجمة داود . وقد فعلت اسرائيل ما هو أكثر من ذلك بعد انتصارها فى ١٩٦٧ . ولكن مصر لم تعد توزع هذه الميدالية بعد مبادرة السادات بالسلام . ومن الممكن أن يكون بعض الذين أخذوها قد احتفظوا بها . فلماذا نشرتها الصحيفة الإسرائيلية الآن ؟ .

نقول إن هناك مشاعر عدوانية لاسرائيل فى مصر . رغم كل المحاولات الجادة المخلصة لتطبيع العلاقات بين البلدين . وبعد أن تأكد للعالم كله أن السلام أمل الجميع أصبح حقيقة مؤكدة . ولنقول إن هناك ازدواجا فى القيادة المصرية . فالرئيس السادات ودعوته الصادقة إلى السلام فى جانب . والمؤسسة العسكرية فى جانب آخر .

أو أنها فرصة لهذه الصحيفة لكى تحدد حملتها على السفير الإسرائيلى فى مصر . فإن كان هذا هو السبب الوحيد . فالأمر لايعنينا .

غير أنى لاأعتقد ان هذا هو القصد الوحيد من هذه الأكذوبة .

ولاأظن أن بعض صحف اسرائيل وبعض الصحف العربية تملك أكثر مما تملك من القدرة على نشر الأخبار المثيرة الحقيقية والفضائح الوزارية والشخصية المؤكدة . ولدينا الكثير جدا . ولكن نحن لا نخاف على مصر الأفراد ولكن نخاف على مصر الشعوب . والعلاقات العامة والخيرية بينها

وملايين المصريين يعرفون جيدا قرع أقاربهم فى البلاد العربية عندما كانوا يقرأون ويسمعون الأكاذيب المستمرة عن كل شىء فى مصر . فلايكادون يصلون إلى مطار القاهرة حتى يتطلعوا إلى الشوارع ليروا أين هذه المشانق المعلقة والمتاريس التى تسد الميادين والمظاهرات التى تملأ بالأحياء . ثم يندفعوا إلى المطاعم ومحلات البقالة ليتأكدوا إن كان صحيحاً مانشرته بعض الصحف العربية من أنها خالية من السلع وضروريات الحياة . وقد تحدثت القاهرة طويلا عن ذلك المواطن المصرى الذى نزل من الطائرة مسرعاً ليطمئن على سلامة مصر ثم لم يجد إلا كل مايسعده . فذهب إلى المسجد وصلى ركعتين شكراً لله . ثم اتجه إلى بيته ليكتشف أنه قد نسى زوجته وأولاده وأمتعته فى المطار ! ..

لقد شغلته مصر عن كل شىء . وليس هذا إلا واحدا من مئات الألوف العائدين فى الخارج ..

وقد اعتاد المصريون فى الخارج على قراءة وسماع الأكاذيب عن مصر . كما اعتدنا نحن على الصدق وعلى الحرية وعلى حق الأقلية الفعالة فى أن تعيش بسيادة القانون فى أمان ..

وبعد فكانت الأسباب التى دعت . وسوف تدعو . إلى كتابة مثل هذه الأخبار السامة . فإن مصر كما هى : مستقرة آمنة ماضية فى مزيد من الديمقراطية والحرص على الرأى الآخر وفى إحراج الدول العربية الأخرى التى لاتعرف لا الديمقراطية ولا الأمان .. وسوف تمضى فى السلام مع إسرائيل على تدعيم العلاقة بين مصر وأمريكا شريكنا الكامل فى التسوية الشاملة .. وفى نفس الوقت سوف تكون مصر أول من يؤيد أية محاولة أوربية عربية من أجل حل القضية الفلسطينية ..

وأهم من ذلك كله : سوف تتسع قاعدة القيادة والرقابة الشعبية لتجنى مكاسب ٩٩٪ فى مواجهة أقل من ١٪ من الشعب ! ..

وقد نجح الإغريق فى تصوير مكانة مصر الحضارة بين شقيقاتها العربيات . فقد الإغريق أن سيدة فاضلة اسمها لوكريسيا عاشت فى مدينة منحلة الرجال والنساء . وكانت حياة لوكريسيا هذه تحديا يوميا لكل امرأة ولكل رجل . فضاقت النساء بهذه السيدة الفاضلة . فتآمرت النساء على إسقاطها فى نفس الوحل . وذلك بأن اقنعن الرجال بالسفر بعيدا عن المدينة . ثم أرسلن لهذه السيدة من يغريها ويحاول الاعتداء عليها . فإذا حدث . أو أشيع أنه حدث . أصبحت المدينة كلها منحلة ولم تعد هناك فضيلة أو رذيلة . فالكل فى الوحل سواء ..

وفشلت محاولة النساء فى إسقاط هذه السيدة . وبدلا من أن يسقط سيدة فاضلة . فإن عصمة هذه السيدة وعظمتها . قد أسقطت المدينة كلها وفضحت الرجال أمام النساء . والنساء أمام الرجال ..

وبقيت لوكريسيا رمزا حيا للتحدى الفاضل فى مواجهة الانهيار الخلقى والسقوط الاجتماعى !

ولذلك تحاول كل النساء الساقطات ألا تكون هناك امرأة فاضلة . وتحاول كل الدول المنهارة ألا تكون هناك دولة قائمة مستقرة آمنة ..

ومصر بملايينها الأربعين وحضارتها العريقة واستقرارها شعبا وقيادة . وصدقها فى تحقيق السلام ونجاحها المستمر . سوف تجعل بقية الدول العربية مستحيلة . وهى بالفعل كذلك . ولكن الكراهية والحقد واليأس والفوضى السياسية هى التى تصور لحكام هذه الدول أن الذى يتوقعون حدوثه هو دائما فى الخارج وفى مصر بالذات . وليس فى الداخل عندهم وبينهم وعلى رءوسهم – وهكذا تصدق نبوءة مصر !